مجلـــــة الآداب للعلوم الإنســـانيـــة
المجلد الثامن العدد الثاني، ديسمبر
2025، ص ص197- 222
Arts & Humanities Journal
Vol. 8, Issue no. 2, December,
2025, pp.197-222

Issn (النسخة الالكترونية): 3006 -757X Issn (النسخة المطبوعة): 3006 -7561

اللغة وبناء الشخصية في الرواية الواقعية السودانية: قراءة تحليلية في نقد بشير عباس

الدكتور/ أبو صباح علي الطيب أبو صباح

أستاذ الأدب والنقد المساعد– قسم تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها– كلية اللغات والعلوم الإنسانية . جامعة القصيم

aa.abusabah@qu.edu,sa

تاريخ استلام البحث: 30/ 11/ 2025 **تاريخ قبوله للنشر: 14/ 12/ 2025**

موقع المجلة: https://taiz.edu.ye/tujr/index.php/ahs

اللغة وبناء الشخصية في الرواية الواقعية السودانية: قراءة تحليلية في نقد بشير عباس

د. أبو صباح علي الطيب أبو صباح

أستاذ الأدب والنقد المساعد– قسم تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها– كلية اللغات والعلوم الإنسانية . جامعة القصيم

ملخص البحث

يتناول هذا البحث نقد بشير عباس للغة وبناءِ الشخصية في الرواية الواقعية السودانية، وتكمن أهميته في ارتباطه بروايات ذات ثقل أدبي، تجسِّدُ الواقعَ الاجتماعي وتحولاته، وتتميَّز بعمق نقدي وتحليلي. يهدف البحث إلى توضيح المنهج النقدي لبشير، وبيان أثره في ترسيخ العلاقة بين الرواية، والواقع. اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، متتبعاً قراءات بشير النقدية، وآراء عدد من النقاد؛ لفهم النصوص، والكشف عن أبعادها الفكرية، والجمالية. اقتصر التحليل على ماورد في كتاب بشير حول لغة الرواية الواقعية، وبناء الشخصية عبر جانبين متكاملين: نظري يتصل ببيئة الرواية، وجذورها التاريخية، وتطبيقي يتناول العلاقة المعرفية بين الرواية والواقع. خلص البحث إلى فاعلية اللغة، وتأثير بنية الشخصية في تشكيل الرواية الواقعية، وإلى جدوى رؤية بشير النقدية، في مقاربة هذا النمط السردي، مع التوصيةً باستكمال الجوانب التي لم يتسن تناولها تفصيلاً.

الكلمات المفتاحية: بشير عباس، الرواية الواقعية، اللغة الروائية، بناء الشخصية، النقد العربي المعاصر، الخطاب النقدي، التحليل السردي.

Language and Character Construction of Sudanese Realist Novel: An Analytical Reading of Bashir Abbas' Critique of Sudanese Realist

Dr. Abusabah Ali Eltayeb Abusabah
Assistant Professor of Literature and Literary Criticism
Department of teaching Arabic to non- native speakers, College of Languages & Humanities Qassim University

Abstract

This study investigates Basheer Abbas's critical view of how language and character are shaped within the Sudanese realist novel. Its importance emerges from its engagement with literary works that capture the complexity of Sudanese social life while reflecting its cultural and historical transformations. By revisiting Abbas's critical contributions, the research seeks to clarify his analytical method and show how it helps strengthen the connection between narrative fiction and the social realities it represents. Drawing on the descriptive–analytical approach, the study examines Abbas's readings alongside the insights of other contemporary critics to uncover the intellectual and aesthetic layers embedded in realist narratives. The discussion focuses on two central aspects of Abbas's critique: the linguistic texture of the realist novel and the processes through which characters are constructed. These aspects are approached through a theoretical lens that considers the novel's socio-historical context, and an applied lens that explores how fiction engages with and interprets reality. The study concludes that both language and character construction play a decisive role in shaping the Sudanese realist novel, and that Abbas's critical vision offers a productive framework for understanding this narrative tradition. It also encourages further scholarly exploration of areas that could not be fully addressed within the scope of this research.

Keywords: Basheer Abbas, realist novel, narrative language, character construction, contemporary Arab criticism, critical discourse, narrative analysis.

المقدمة

يركّز البحث على دراسة اللغة، وبناء الشخصية في الرواية الواقعية السودانية من منظور بشير عباس، مستعرضاً أثر ذلك في المشهد الأدبي السوداني، كما يناقش التحولات الاجتماعية، والفكرية، والسياسية التي مثَّلت الروايةُ مسرحَ أحداثِها، ورصدت أدق تفاصيلها من خلال اللغة وبناء الشخصية، ويعد الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق من أهم كُتَّابها. تأتي أهمية الموضوع من ارتباطه بكاتبين حظيا بتقدير كبير في مجال الرواية الواقعية، وعُدَّا من أبرز روادها. ويسعى البحث إلى مناقشة رؤية بشير، والوقوف على أثر هذين الكاتبَين في تشكيل البنية الواقعية للنص الروائي، الذي تتبَّع فيه بشير الأساليب الفنية المرتبطة بمحيط الرواية الاجتماعي والفكري. كاشفاً صلة النَّص بالواقع، عبر تحليل فني استثمر فيه معرفته بعناصر السَّرد، وقدرته على استقصاء الحقائق، واستجلاء حركة المجتمع.

ويأتي اختيار الموضوع لأسباب منها: اهتمام الباحث بدراسة لغة الرِّواية، وبناء الشخصية بوصفهما قضيتين محوريتين تتيحان الوصول إلى نتائج تخدم فكرة البحث، وتُقدِّم إضافة نوعية إلى حقل نقد الرواية، كما تنبع أهمية البحث من إتاحته مناقشةِ النتائج التي توصَّل إليها الناقد بشير في معالجته لهاتين القضيتين المتصلتين بالرواية الواقعية، وما يرتبط بهما من أساليب فنية تسهم في تحديد ملامح هذا النمط الروائي.

ويهدف البحث إلى الكشف عن رؤية بشير عباس النقدية لخصائص اللغة الروائية، وبناء الشخصية في تجارب الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق، ومعرفة أسلوبه في تناول الرِّواية الواقعية، وبيان موقف النقد السوداني منها، وقد جاء البحث امتداداً لدراسةٍ سابقة تناولت ملامح الاتجاه الواقعي في الرواية السودانية، التي تعالج القضايا المجتمعية المباشرة، وتُسهم في سدِّ جزءٍ من الفراغ في مجال نقد الرواية.

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، القائم على الملاحظة، والاستنتاج، ورصدِ الآراء، ودراسة الخطاب النقدي الذي تبناه بشير عباس في قراءة الرواية، مع مراعاة سياقاتها التاريخية والفكرية والجمالية.

ويقع البحث في ثلاثة فصول ومدخلٍ يعرض رؤية بشير عباس للغة الرواية وبناء الشخصية، إضافةً إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع، ويتضمَّن العناوين الآتية: مدخل لدراسة لغة الرواية وبناء الشخصية من منظور بشير، ولغة الرواية عند الطيب صالح وإبراهيم إسحاق، وملامح التجديد في بناء الشخصية في ضوء رؤية بشير النقدية، ويستصحب البحث قضايا الواقع، ويتتبَّع عناصر البناء الفني للرواية، متوقِّفاً عند مظاهر الغنى اللُّغوي، والتجديد في بناء الشخصية، ومستأنساً بالجانبين النظري والتطبيقي في مناقشة علاقة الرواية بالواقع. وقد أظهرت الخاتمة براعة اللغة التي اعتمدها بعض كُتَّاب الرواية الواقعية في السودان، وبينت أساليبهم المؤثرة في إبراز ملامح الشخصية، وفاعلية رؤية بشير النقدية في تحليل الرِّواية. كما سعى البحث إلى تنفيذ توصية سابقة تقضي باستكمال الجوانب المهمَّة من رؤية الناقد بشير حول ملامح الرواية الواقعية.

ويتخذ بشير البعد التاريخي مصدراً لفهم تأثير الواقع على نماذج الرواية، مقدماً عرضاً متدرجاً ودقيقاً لتفاصيلها. يعالج قضايا الرواية بأساليب فنية متتبعاً عناصر البناء، وواقفاً على الفروق الدقيقة في التراكيب اللغوية، محدداً ملامح الشخصية، وعناصر بنائها الملحمي، والدرامي. تأتي هذه المعالجة في قالب نثريٍّ فنيٍّ يُصوِّر الواقع، ويقدِّمه للمتلقي في صورٍ متشابكة تتداخل فيها اللغة مع الحدث، وتتقاطع دلالات الحدث مع المضمون ضمن سياق حركة المجتمع معبِّرةً عن الارتباط الماثل بين الكتابة الروائية، والواقع.

وقد استعرض بشير تاريخ الرِّواية الواقعية في السودان، معدِّداً الدراسات التي وقفت عليها، ومشيراً إلى بعض التي تناولت روايات الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق، وغيرهما من الكُتَّاب، مشيراً إلى أنَّ بعض الدِّراسات تناولت الرواية السودانية بوصفها منظومة فنية لغوية إبداعية تحكمها أسرارٌ خاصة، ومستويات لغوية، يتطلَّبُ إدراكها الإلمام بالأدوات اللازمة، ويستعين ناقدوها بمفاتيح، تتوافر لأصحاب الملكات الخاصة ممن عرفوا أسرار النقد.[1]

1-1 مدخل بشير لدراسة اللغة وبناء الشخصية في الرِّواية الواقعية

أولى بشير عباس لغة الرِّواية الواقعية اهتماماً بالغاً باعتبارها الأداة الرئيسة لتمثيل الواقع وتجسيده، ونقل رؤية الكاتب للمجتمع، وقضاياه. واستصحب البعد التاريخي بوصفه عنصراً مهماً من عناصر الكشف عن تأثير الواقع في لغة الرواية وبناء شخصياتها، ورأى أنَّ ظهور الرواية بعد الحرب العالمية الثانية مثَّلَ ضرورةً للتعبير عن حركة الحياة، معتبراً الرِّواية الواقعية من أكثر الأشكال الأدبية قدرةً على تصوير الواقع بطريقة أدبية متكاملة[2] وقد تتبَّع بشير تاريخ الرِّواية السودانية، فأورد تفاصيل دقيقة، وناقش قضايا مؤثرة في تكوين الرواية الواقعية، ووقف على الفروق المميِّزة لعناصر بناء النَّصِّ الرِّوائي، مؤكداً أثر اللغة في بناء تصوُّر القارئ للواقع والشخصيات، ورفد النَّقد بما ينطوي عليه النَّصُّ الرِّوائي من قدرة على تصوير المجتمع بأسلوب أدبي رفيع.

في مقدمة مؤلفه، سعى بشير إلى إيجاد ربطٍ شاملٍ يمنح القارئ تصوُّراً واضحاً للمحيط العام الذي نشأت فيه الرِّواية السودانية، متناولاً التحولات الاجتماعية والفكرية والسياسية التي تضمنها نسيج الرواية الواقعية. وواقفاً على صورٍ نثرية فنية جسَّدت الواقع، وصوَّرت حركة المجتمع، وسايرت المفهوم العام الذي يؤكد أنَّ الواقعية "ترتكز إلى مفهوم شامل عن العالم الموضوعي الذي يرينا الطبيعة والمجتمع في حركة دائمة ذات محتوى تطوُّري..."[3] ويظهر هذا التعريف أهمية اللغة بوصفها الأساس الذي تُبنى عليه الشخصيات الواقعية، حيث تتيح للرَّاوي تمثيل الشخصيات بدقة، وتجسيد التحولات الاجتماعية والفكرية داخل النص. ويرى الباحث أنَّ بشير عباس تمكَّن من تحليل الشخصيات الواقعية السودانية لمَّا ربط قراءته لها بالبيئة والواقع؛ الأمر الذي مكَّنه من تفهُّم أبعادها النفسية والاجتماعية، إذ تُمثِّل اللغة أداةً لتشكيل الشخصية، ويقود استيعابها إلى فهم الواقع.

وقد أولى بشير القضايا الفكرية المؤثرة في مسيرة الرواية الواقعية اهتماماً كبيراً، وربطها بتأثير اللغة، وبناء الشخصية ضمن عناصر أخرى متعدِّدة قارن فيها بين الواقع والصورة في الرِّواية، مبيِّناً قدرة لغة الرواية على تمثُّل المفاهيم، ومفرقاً في ذلك بين كُتَّاب الواقعية في اتجاهيها التقليدي، والجديد، واختتم رؤيته بوضع إطارٍ نظري بسط فيه

القول عن أساليب معالجة بناء الشخصية، وتتبّع صورتها لدى الروائيين، وأبرز بناءها الملحمي، بعد أن استصحب ما انطوت عليه من ملامح فكرية أثرت على بنائها لدى كُتَّاب الواقعية التقليدية، مع حرصه على الكشف عن سمات بناء الشخصية الواقعية الجديدة، وبيان تشابكها مع فكرة أنَّ "واقعية الرواية الانسيابيةً التي تبنَّاها الطيب صالح تعدُّ سجلاً صادقاً وأصيلاً لتاريخ المجتمع بكلِّ أبعاده من أفكار محلية، وعادات ومعتقدات وتقاليد، ونظم سياسية واقتصادية"[4].

ويلاحظ المتلقي أنَّ بشيراً تبنَّى منهجاً جاداً في تحليل الرواية الواقعية، ربط فيه بين تطوُّر لغة الرِّواية، والتحوُّلات الاجتماعية، مؤكداً "أنَّ الحركة الواقعية قد ارتبطت بمرحلة نشاط المد الاستعماري، وحدوث تغييرات اجتماعية هامة، وبخاصة في العلاقات الطبقية"[5] وما نتج عنها من انعكاسات على السَّرد الروائي، ساعد في تشكيل أسلوب الرواية الواقعية، من ناحية تأثير التجارب الاجتماعية المباشرة على اختيار اللغة، وتحديد أسلوب السَّرد، والحوار، وصياغة الأحداث، بما يعكس واقع المجتمع، ويضفي مصداقية على الشخصيات.

وفي هذا السياق ركَّز بشير على المكونات اللغوية للسرد الروائي، وما يتصل بها من عناصر مثل: السرد، والحوار، والمونولوج، والمنظور الروائي. والتمس تأثير هذه العناصر على إيصال الواقع الاجتماعي والفكري، مظهراً الفرق بين الرواية الواقعية التقليدية التي تلتزم بالتصوير المباشر للواقع، ونظيرتها الجديدة التي استلهمت الأساليب الواقعية الأوروبية والعربية بعد تأثُّرِها بالمذهب الواقعي السائد في أوروبا، والمنتشر في بعض الأقطار العربية المتأثرة به، الأمر الذي يؤكده بشير بقوله إنَّ الرواية الواقعية السودانية أفادت من الانفتاح على العالم الخارجي، فتأثرت بالرواية المصرية، والإنجليزية، والروسية[6].

وفيما يتصل ببناء الشخصية الواقعية –باعتبارها مرآةً للمجتمع، ووسيلةً لإظهار التحولات التي تطرأ عليه– أشار بشير إلى أنَّ الرواية الواقعية السودانية سعت إلى رسم شخصيات متكاملة تعكس التحولات الاجتماعية والإنسانية، والفكرية والسياسية المرتبطة بالواقع المعيش، وبيَّن كيف يمكن للرَّاوي أن يبني شخصيات متكاملة تعكس البنية

الاجتماعية، والصراع الطبقي، والتحولات الفردية من خلال لغة وأسلوب الرِّواية، مميّزاً بين الشخصيات التقليدية الملحمية، والشخصيات الواقعية الحديثة التي تمتاز بالعمق النفسي، والتعقيد الاجتماعي، موضحاً أنَّ بناء الشخصية يرتبط بعناصر السَّرد والحوار والمنظور، التي تتآزر لتشكيل شخصيات قادرة على التعبير عن الواقع بدقة وفاعلية.

وقد تابع بشير أساليب تصوير الشخصيات في الرِّواية الواقعية، موضحاً ملامحها التقليدية والحديثة، ومبيّناً الفوارق بين الشخصيات الملحمية، والواقعية، ومؤكداً أنَّ أعمال الكاتبين الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق –بوصفهما أبرز ممثلي الاتجاه الواقعي– تميَّزت بمستوى فنّي رفيعٍ جعلها تشكِّل نماذج بارزة في مسار السرد الروائي العربي، كما عمل على تحليل أثر البيئة، وقدرة الرِّواية على تمثُّل القضايا الاجتماعية والفكرية من خلال الشخصيات. وفي استقراءٍ لعلاقة الرِّواية بالتاريخ الإنساني الاجتماعي، يقول الكاتب الروائي إبراهيم إسحاق" إنَّ القراءة النقدية لمجموعة السَّرد الخيالي الرَّفيع في كل حقبة قد تعطينا انطباعاً صادقاً بأنَّ المبدعين لهذه الحقبة قد استطاعوا أن يصوِّروا لنا الملامح العامة لمجمل الحياة التي عاصروها"[7]

والحق أنَّ الناقد بشير حشد –في دراسته– أهم العناصر التي تقرِّب الصورة إلى ذهن المتلقي، وتضيء جانباً مهماً من جوانب الرِّواية بما في ذلك اللغة، وبناء الشخصية، هذا مع تركيز منه على ربط لغة الرِّواية ببناء الشخصيات، باعتبار أنَّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي أداة أصيلة في تشكيل الصورة الروائية للواقع، وإضفاء أبعاد متعدِّدة للشخصيات، على مستوى الفكر، أو السلوك، أو التأثير الاجتماعي، وقد استخدم في ذلك أدوات تحليلية دقيقة، مبيّناً أنَّ الرواية الواقعية السودانية عكست حياة المجتمع، بلغةٍ معبِّرة، وتصوير واقعي شديد البساطة، مع إشارات لأهم الرِّوايات التي جسَّدت الواقع بما فيه من صراع طبقي، وما ساد من ظلم، وفقر، وتحوُّلٍ مجتمعي. كل ذلك عبر لغة أدبية متقنة، وبناء فني متكامل أظهر الشخصيات، عبر لغةٍ تمثَّلت الواقع، وجسدت التحولات بصورةٍ جعلت دراسة اللغة عند بشير تبدو دقيقة في التعبير عن الواقعية. وقد استعان بشير بأدوات، ومناهج تحليل بيَّنت غايته من دراسة الرِّواية، وأظهرت مكانتها في تطوُّر السَّرد السوداني في العصر الحديث.

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

1– 2 لغة الرواية الواقعية من منظور بشير

أفرد بشير الباب الثالث والأخير من مؤلفه لدراسة اللغة في الرِّواية الواقعية السودانية الحديثة. وبالرغم من أنَّ التصور المنطقي –حسب رأي الباحث– كان يقتضي البدء بدراسة اللغة، فإنَّ تنظيم فصول الكتاب جاء مترابطاً على نحو، لا يُحدث لدى القارئ أي خلل، أو يشعره بفراغ؛ ذلك أنَّ بشيراً لم يعالج اللغة بوصفها عنصراً مغزولاً، بل درسها في إطار أشمل، ربطها بحركة المجتمع، وكشف عن أثرها في تشكيل دلالاته، وتمثيل تحولاته، متتبِّعاً صور تعبيرها عن حياة الناس، في دقةٍ لا تُشعر القارئ أنَّ اللغة أداةٌ فنية ترسم ملامح الصورة الإبداعيةِ المتَخَيَّلة؛ وقد دفع هذا التناول الناقد إلى توسيع رؤيته عبر تمهيد نظري أكَّد فيه إلى أنَّ هذا المحور كان مثار معاناة خاصة لديه عبَّر عنها بقوله: "لم تجد لغة الرِّواية ما تستحقه من عناية الدَّارسين، والنُّقاد في اللغة العربية، مع أنَّها من أهم مقومات العمل الفني الروائي"[8] ومن هذه النقطة انطلقت معاناة بشير الذي وجد نفسه أمام مهمَّة شاقة ألزمته السير في طريق غير معبدة، بحثاً عن أسس منهجية تمكنه من مقاربة لغة الرواية، مقاربة علمية منهجية دقيقة.

ويُفَرِّقُ بشير –في قراءته النقدية– بين لغة الرِّواية ولغة المسرح، وبين لغة الشعر، مؤكداً خصوصية كلٍّ منها، حيث تتسم لغة الشعر بالعاطفة والإيحاء، بينما تتسم لغة الرواية بالمرونة واتساع الأفق؛ لتعكس واقع المجتمع عبر الوصف والتَّحليل، مع ظهور الدِّقة العلمية في الرِّواية الواقعية الحديثة، خاصة لدى أصحاب النزعة التسجيلية الفوتوغرافية. كما يرى بشير أنَّ لغة الرِّواية أداة كبرى تكشف عن العلاقات المختلفة، وتقيس جودة العمل الروائي، وتعكس براعة الكاتب في التَّعبير عن الأفكار، والمشاعر، والمواقف الإنسانية.[9]

وتكتسب لغة الرِّواية خصوصيتها من بعدها التصويري الذي يقوم على تمثيل الحياة، واستحضار تفاصيلها، ومنح المشاهد العادية بعداً فنياً يتجلَّى في التشويق والإبهار، ويحوِّل المواقف المألوفة إلى صورٍ جاذبة تدفع المتلقي إلى متابعة الأحداث، حيث يغدو الأسلوب عنصراً حاسماً في تحقيق الجاذبية، وهو ما ذهب إليه أكثر النقاد ممن يرون إنَّ "الرِّواية مثلما تحتوي على صورة من حياة الناس في المجتمع، فإنها كذلك

تحتوي على صورة من لهجاتهم وأصواتهم، وأنها تستخدم وسائلهم التعبيرية أداة لرسم ملامح الصورة الخيالية فيها"[10]

ويُعزِّز بشير موقف النقد السوداني من الرِّواية الواقعية وفق الدلالة اللغوية التي يرى النقاد أنها تُعنى بـ "تصوير الواقع والتعبير عنه"[11] انطلاقاً من خصوصية اللغة الروائية، وقدرتها على تمثيل الواقع، وفق معايير تقييم الأسلوب الروائي. كما يركز في تحليله على المنظور الرِّوائي الذي يتبناه الكاتب، باعتباره عنصراً مهماً في بناء الرواية، إذ يحدِّد موقف الرَّاوي من الأحداث، وعلاقته بالشخصيات ويُمكِّن من قياس مدى قربه، أو بعده عنها، وهو ما يعده بشير "المعيار الدِّرامي الأساس الذي يحدِّد قيمة الأسلوب، وتأثيره على المتلقي"[12]

ويلاحظ بشير أنَّ العلاقة بين الرَّاوي، وبين الأسماء المكونة لشخصياته في الرِّواية الواقعية السودانية تقوم –في الغالب– على استخدام ضمير الغائب، ويستثني روايات قليلة مال كتابُها لاستخدام ضمير المتكلم، وقاموا بدور الرَّاوي الذي يتبنَّى طريقة تفكير شخصياته، ورغباتهم، فيعبِّر عما يفكرون فيه، ويصف ما يشعرون به، ويشير في هذا الصدد[13] إلى أنَّ الكاتب لا يتيح التعبير الحر لشخصيات روايته، بل يتبنَّى التعبير المباشر عنها، وفوق ذلك يعتمد تقديم الحدث، والبيئة، والشخصية من خلال أسلوب الوصف.

وهناك نقطة جوهرية تتصل باللغة، يرى معها بشير أنَّ إجادة الرِّوائي لأداته التعبيرية أمر حيوي يتوقف عليه فهم الرواية بصورة قاطعة؛ لأن معرفة الرِّوائي بالفروق اللغوية الدقيقة يساعده على بناء عمل فني غني بالدّلالات، كما أنَّ معرفته بالطرق المختلفة التي تُكتب بها الجملة الواحدة له تأثيره في فهم المعنى[14]؛ ولهذا تتحدَّد معرفة دلالات أي تعبير، في ضوء فهم الكلمات المكونة للجملة، مقروءةً في سياق الظروف التي حملت الروائي على نطق الكلمات المعبَّر بها في نسيج نصِّه الكُلِّي، ووحداته الداخلية المتماسكة، من خلال الأشكال التعبيرية المختلفة، مثل: السرد، والوصف، والمقاطع الحوارية، وهو ما حدا ببشير إلى إفراد مدخل تمهيدي نظري للباب الثالث تناول إلى جانب ما ذكر الوصف، والمونولوج الداخلي[15]، ومناجاة النفس، والحلم، والرمز، والمنظور الروائي.[16]

وتمثل اللغة في البناء الرّوائي تحدياً كبيراً؛ لما لها من دلالات إبداعية خاصة تتصل بطبيعة العمل الفني، ويتضاعف هذا التَّحدِّي، ويصبح أكثر خطراً عندما يتصل بالفنون القصصية؛ لأن لغتها" تختلف عن لغة الشعر التي تعتمد على الإيقاع، والإيحاء مما يميّزها عن اللغة التي يتواصل الناس بها، ويصبح الأمر أشد تعقيداً، أمام كاتب الرّواية الواقعية الذي يسعى لصياغة عالم روائي، لا يبتعد عن الواقع، ولا يفقد طابعه الفني"[17]

وقد اختلف النقاد "حول النَّمط الأمثل للغة الرّواية، فأيد بعضهم استخدام اللغة الفصحى، وأيَّد فريق آخر استخدام اللغة العامية، وقد جعل أغلب المؤيدين للعامية استخدامها مقتصراً على الحوار لا السرد"[18]

على أنَّ بناء الرواية يُحمل على تغيير الأسلوب التعبيري، فلغة الحوار تختلف عن السَّرد، والسَّرد يختلف عن وصف أي مشهد عابر منفرد، فالمونولوج الدَّاخلي الذي أشرنا إليه سابقاً يُعد من أبرز الأساليب التي تبرز الحالة النَّفسية والفكرية للشخصية، وعادة ما تُقدَّم لغته في قالب يحمل كلاماً عادياً، لا يخضع للأسس اللُّغوية الصارمة، هذا مع الاعتراف بأهمية الأسلوب اللغوي في جميع مراحل بناء الرواية؛ نظراً لارتباطه بالتعبير عن الواقع، وعلاقة الأسلوب بدلالة المعنى المراد تصويره، ودقته في نقل الأحداث.

ومن بين الأخطاء التي أحصاها بشير ما ينشأ عن عدم الدِّقة في اختيار اللُّغة المعبِّرة عن الواقع، مثل وصف حلم صفية في رواية (موكب الحيارى) حين رأت في منامها أنها تُزفُّ إلى مُحْسِن بفستان أبيض، وطرحة بيضاء، بما يخالف الواقع المتعلق بجهاز العروس، في تلك الفترة.[19] وتوقَّف بشير عند الأخطاء النحوية والصرفية والدلالية والكتابية التي وقع فيها كُتَّاب الرّواية التقليدية الواقعية، وأشار إلى أنها وسمت بناء أعمالهم الرّوائية بالضَّعف، إلى حدٍّ جعله يرى أنَّ أسلوب الرّواية التقليدية الواقعية في السودان في بداياته اتسم بالبساطة، ولم يرق إلى مصاف العمل الأدبي المجوَّد، بل تدنَّى في بعض الأحيان إلى مستوى الأسلوب الصحفي العادي.[20]

وبخصوص لغة الحوار توصل بشير إلى أنَّ كُتَّاب الرّواية الواقعية استخدموا نوعين منها، فملكة الدار محمد صاحبة رواية الفراغ العريض استخدمت لغة فصيحة رفيعة، بينما اعتمد أبو بكر خالد لغة فصيحة بسيطة، ومزج آخرون مثل: خليل الحاج، وصالحين، وعبد الفتاح عثمان الفصحى بالعامية في كتاباتهم.[21]

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

ويُقِرُّ في حديثه عن بناء الحوار في الرِّواية الواقعية بأنَّ صياغة تفاصيل الواقع في بعض الرِّوايات جاءت مُمِلَّة، حمل بناؤها حوارات باهتة لا قيمة لها، عدَّها بشير من عيوب الحوار، ومثَّل لذلك بحوار ورد في رواية مأساة القبور بين أبكر، وأحد الرعاة.[22]

وتُظهر رؤية بشير للنص الرِّوائي عمق تشابك العلاقات البنائية فيه، وتكشف عن الرَّوابط التي تُحافظ على وحداته المتجانسة، بما يضمن اتساق المشاهد المتتابعة. كما تبرز هذه الرؤية كيفية وصف الأشياء، والشخصيات، ودمجها في وحدة متكاملة، دون فصل بين عناصر النص.

ويتخذ النَّصُّ الرِّوائي أشكالاً تعبيرية متعدِّدة أبرزها السَّرد،[23] والوصف[24] اللذان يشكلان أدوات رئيسة لنقل الأحداث، وتصوير الشخصيات والأفكار داخل العمل الرِّوائي، ويُولي بشير المقاطع السَّردية اهتماماً خاصاً، محلِّلاً بناء الحدث الروائي، وإيقاعاته الزمانية، والمكانية، ومركزاً على الوصف الذي يُصوِّر الأشياء والشخصيات، مشيراً إلى أنَّ صور السَّرد تعبِّر عن شكل الحدث الخارجي، حين يعجز الكاتب عن تصوير العالم الداخلي للشخصية، وهو شائع في النُّصوص الواقعية، ويعدُّ السَّرد أسلوباً متعدد الوسائل، بما في ذلك الحوار،[25] والرسائل، ومناجاة النفس، بينما يتخذ الوصف أساليب مختلفة في البناء الرِّوائي، أبرزها: الاستقصاء الذي يتتبَّع أدقَّ التفاصيل، ويقود أحياناً إلى موضوعات متشعبة، والانتقاء الذي يُحسِّن طبيعة الوصف الرِّوائي، ويؤدي إلى تماسك العمل الفني.

وبالنظر إلى أنَّ السَّرد، والوصف وحدهما لا يكفيان لتصوير واقع الحياة في الرِّواية لجأ الكُتَّاب إلى إدخال أساليب أخرى على رأسها الحوار، الذي يعكس ميول الشخصيات وأفكارها، ويتيح للكاتب عرض رؤاه، وكشف الجوانب الخفية في الشخصيات، كما يبرز المونولوج بوصفه لوناً من ألوان الحوار، بما في ذلك مناجاة النفس القائمة على افتراض وجود جمهور يستمع، إضافة إلى الحُلْم سواء أكان في المنام أو اليقظة، وهذه التقنيات مجتمعة ترتبط بالشخصيات، ولا تعدُّ مجرد سرد عابر للأفكار، والكلمات، بل تضفي على الرِّواية جمالاً، وتمنح لغتها بعداً أسلوبياً عميقاً.[26]

2– 2 لغة الرواية عند الطيب صالح وإبراهيم إسحاق

تميَّز الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق بلغة مُعبِّرة، وامتلكا قدرة عالية على تصوير البيئة التي عاشا فيها. فالطيب صالح عبَّر عن بيئة الشمال السوداني، ومزج في رواياته بين العربية الفصحى، وعامية أهل الشمال، ولا سيما لهجة قبيلة الشايقية، بما يعكس التعدُّد الثقافي، واختلاف الهوية داخل المجتمع السوداني. وتتجلَّى في رواية موسم الهجرة إلى الشمال قدرة اللغة الفصيحة على نقل التجربة الفنية والإنسانية، في حين استخدم الحوار العامي في روايتي عرس الزين وبندر شاه ضو البيت؛ لإضفاء عمق واقعي على السرد، مستفيداً من القيمة الوجدانية للَّهجة المحلية التي تشكِّل جزءاً من التراث الشعري والديني والعاطفي في السودان.

ويرى بشير أنَّ الطيب صالح نجح في تحقيق توازن دقيق بين اللُّغة الواقعية واللُّغة الرمزية ذات الإيحاء الشعري؛ إذ وظَّف لغة الرِّواية لبناء الشخصية، والمكان في آن معاً. ويرى أنَّ ذلك يتجلَّى بوضوح في لغة مصطفى سعيد التي تكشف عن تحوُّلاته النفسية، وتُعبِّر عن رؤيته للعالم، وتُظهره مثقفاً واسع المعرفة، ومتمكناً من العربية لا سيما أنَّه ينهل من ثقافتين: عربية متجذرة في هويتها المحلية تفيض بالإيحاء، ورمزية محلية، ومن هنا يذهب بشير إلى التركيز على أن الطيب صالح لا يكتفي بتصوير الواقع، بل يعيد تشكيله فنياً، ويتخذ من اللُّغة أداة وعي وهوية، ورؤية بشير هنا تتسق مع آراء من يقضي بأنَّ "الفضاء الرِّوائي مثل المكونات الأخرى للسَّرد، لا يوجد إلا من خلال اللُّغة، فهو فضاءٌ لفظي بامتياز، يختلف عن الفضاءات الخاصة بالسِّينما والمسرح"[27].

وتتجسَّدُ بساطة اللُّغة عند الطيب صالح في معظم كتاباته، ويلاحظ ذلك بوضوح في افتتاح موسم الهجرة إلى الشمال: "عدتُ إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوروبا. تعلمت الكثير، وغاب عنِّي الكثير... المهم أنَّني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل..."[28]

في هذا المقطع مَزْجٌ بين البساطة والتكثيف، واعتماد لغة مباشرة مشبعة بإيحاءات وجدانية تسهم في التشكيل الجمالي للنص، تتجلَّى بصورة أكبر في عبارة "عدت إلى

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

أهلي ياسادتي" التي تحمل نبرة خطابية دافئة تنضح بالحنين. وتكشف في الوقت نفسه عن وعي ذاتي يعكس ما يعتمل في نفس مصطفى سعيد من صراع بين الانتماء والاغتراب. لا يقتصر الطيب صالح على الوصف السردي، بل يتجاوز إلى الغوص في الأبعاد النفسية والجمالية للواقع، مؤكداً مبدأ الواقعية الجمالية التي تمزج بين الرؤية الفكرية، والتعبير الفني. كما يبرز عنصر التَّكرَار والإيقاع في قوله "تعلمتُ الكثير، وغاب عنِّي الكثير" وهو تكرار يضفي إيقاعاً تأملياً يعمِّق حضور الشخصية، ويجعلها أكثر قرباً من وجدان القارئ.

أمَّا إبراهيم إسحاق فالتزم في أعماله بعامية أهل دارفور، مقدماً واقعية محلية متجذِّرة في بيئتها المحلية الثقافية والاجتماعية. فقد اعتمد لهجةً دارفورية خالصة أعاد من خلالها إنتاج الواقع اليومي بكل تفاصيله فجعل منَ لغته أداةً لتثبيت الهوية المكانية، أكثر من كونها وسيلة للسَّرد. وتتجلَّى في رواياته ملامح اللغة اليومية التي تكشف البنية الاجتماعية، والثقافية للمجتمع الدارفوري، حيث تحاكي العامية عنده الوعي الجمعي، وتظهر تنوُّع الطبقات والعلاقات الاجتماعية.

ويرى بعض النُّقاد أنَّ التزام إسحاق الشديد بالعامية الدارفورية أبعده عن اللغة الفصيحة، وحدَّ من قدرة نصوصه على التنوُّع الأسلوبي، فبدت الشخصيات متقاربة اللَّهجة بالرغم من اختلاف بيئاتها ومستوياتها الاجتماعية، مِمَّا أضعف الحوار، وأفقد النص بعض حيويته الفنية، ومع ذلك يرى الباحث أنَّ العامية منحت نصوصه خصوصية ثقافية، وجعلتها مرآة صادقة سجَّلت خصائص مجتمعه المحلِّي، ويذهب بشير عباس إلى أنَّ روايات إسحاق افتقرت إلى الحوار القادر على عكس اختلاف البيئات الدارفورية، فظهرت الشخصيات متقاربة في نطقها، وهو ما أضعف تماسك النص الروائي، وحدَّ من تفاعل المتلقي معه فحصر تجربة إسحاق في نطاق محدود.[29]

وتتباين مواقفُ النُّقاد حول تجربة إبراهيم إسحاق؛ ففي حين يرى بشير عباس أنَّ شخصيات رواياته متقاربة في النطق، وأنَّ ذلك يضعف تماسك نصوصه، ويؤثر على تفاعل المتلقي معها، يؤكد هاشم ميرغني الحاج أنَّ محدودية مكانته العالمية تعود للنشر والترجمة، لا لجودة النصوص، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول إنَّ خصوصية لغته تمنحه طابعاً فريداً، وتعطي تجربته قدرةً على تجسيد الهُوية الثقافية والمكانية، ونقل

صورة حية لمجتمع دارفور؛ وهو ما يجعله إضافة نوعية للمشهد الروائي السوداني والعربي، ويَعُدُّ ذلك تجسيداً لإمكانات اللغة المحلية، وبيان قدرتها على أن تكون أداة للإبداع العالمي.(30)

ويبدو أنَّ الاختلاف الماثل بين موقفي الناقدين إزاء تجربة إبراهيم إسحاق لا يحمل تناقضاً –كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى– بل هو تباينٌ في وجهات النظر، بحسب الزاوية التي ينظر منها كل ناقد إلى اللغة داخل النَّصِّ الرِّوائي. فموقف بشير عباس من تقارب نطق الشخصيات ينطلق من جانبٍ إشكالي يتصل بدرجة تمييز الشخصيات سردياً، وقدرتها على التعبير عن خصوصيتها الفردية داخل العمل الروائي، وكأنَّ بشير عباس يريد إثبات أنَّ الفوارق النفسية والاجتماعية بين الشخصيات تتدخَّل في تحديد مستويات اللغة، ومن هذه الوجهة يرى في تقارب النطق مؤشراً ينال من وضوح السمات الفردية، ويحدُّ من قدرة المتلقي على التفاعل مع شخصيات إبراهيم إسحاق. في المقابل تختلف نظرة هاشم ميرغني إلى تجربة إبراهيم إسحاق، فهو لا يرى فيها ضعفاً فنياً كما يذهب إلى ذلك بشير، بل ينظر إليها بوصفها تعبيراً مهماً عن وحدة السياق الثقافي والمكاني الذي تنتمي إليه الشخصيات، وهو أمر تعزِّزه عنده خصوصية حضور اللغة المحلية التي تسهم في تعميق الهوية، وتمثيل الواقع الاجتماعي. وعليه يمكن تلقِّي تجربة إبراهيم إسحاق ضوء هذين الرأيين، فهي تجربة أدبية تتخذ من اللُّغة وعاءً للهوية الجماعية، مع ما يرافق ذلك من صعوبة في إبراز الفروق الفردية بين الشخصيات؛ لهذا فاختلاف وجهات النظر بين الناقدين لا يعدو أن يكون اختلافاً في تحديد وظيفة اللغة، واقتفاء أثرها في بناء الشخصية السَّردية.

والأمر مع روايات الطيب صالح مختلف فقد حُظيت بشهرة واسعة؛ لكتابتها بالعربية الفصيحة الممزوجة بلهجة أهل الشمال في الحوارات. وقد أضفى هذا المزج عليها بعداً واقعياً زاد من قدرتها على التعبير عن ثقافة أهل تلك المنطقة، وعاداتهم، وطرائق تفكيرهم، كما أظهر براعة الكاتب في الانتقال من بساطة المفردة في وصف قرية "ود حامد" إلى عمق التعبير عن تفاصيل الحياة اليومية، وأحلام الناس وتطلعاتهم.(31)

ويتناول بشير قدرة الطيب صالح، وبراعته في تحويل المواقف البسيطة إلى صور رمزية نابضة بالحياة. مثل وصفه مشهد الفلاح محجوب، وهو يفصل شتلةً صغيرة عن

النخلة الأم: "ووجدتُ محجوباً ملطخاً بالطِّينِ يندى العَرَقُ من جسمه العاري، إلا من خرقةٍ حول وسطه، يحاول أن يفصل شتلةً عن النخلة الأم... هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء. حسبوا لكلِّ شيء حسابه، لا يفرحون لمولد، ولا يحزنون لموت، حين يضحكون يقولون "أستغفر الله"، وحين يبكون يقولون "أستغفر الله" ... تعلموا الصمت، والصبر من النهر، والشجر ..."[32]

في هذا المقطع يلتزم الطيب صالح بالفصحى، مصوِّراً المشهد بواقعية رمزية رفيعة؛ إذ تتحوَّل صورة النخلة إلى رمزٍ للانتماء في تقاطع دلالي يُذكِّر بتجربة مصطفى سعيد حينما انفصل عن جذوره. وقد منحت لغة الطيب صالح التصويرية الموحية المشاهد البسيطة في مجتمع الرواية دلالات عميقة موصولة بالبيئة المحلية.

أمَّا إبراهيم إسحاق فيعتمد العامية الدارفورية لغةً للسرد والحوار في إطار واقعية ثقافية تعيد إنتاج تفاصيل البيئة الاجتماعية المترابطة في دارفور. ويتجلَّى ذلك في مقاطع من رواياته، منها قوله" تفوَّهت ستنا بكلمات متقطعة، ودسَّت عوداً في نارها، ثم انحنت فلمع الوهج في جبهتها، عندئذ سمعنا مناداة أم الفضل على عمر، صوتها المتكسِّر متقادم من فوق الحيشان، متكاسل بلا انقطاع"[33] يحيل المقطع أعلاه اللغة من التعبير الفردي إلى التمثيل الجماعي، مبرزاً العلاقة بين اللغة والهوية، فمشهد ستنا وهي تدس عود الحطب في النار يستدعي رمزية الدفء والاستقرار في الحياة الأسرية، ويأتي لمعان وهج النار على جبهتها رمزاً لصورة المرأة الدارفورية، كما يجسد صوتُ أمِّ الفضل المكسر فوق الحيشان طبيعة العمران الريفي المنخفض، الذي يسمح بانتقال الصوت بين البيوت بيسر، ويشكِّل جزءاً من النسيج السمعي للمجتمع. فيعكس تداخل الأُسر، وانفتاح الحي، وهكذا تصبح لغة إسحاق تجسيداً لتجربة فنية صادقة تعيد صياغة العلاقة بين اللغة والهوية.

ويُلاحظ أنَّ إسحاق يوظف العامية توظيفاً يجعلها جزءاً من الهوية الثقافية والاجتماعية، التي يدخل من خلالها القارئ إلى جغرافية دارفور، ومعجمها الشعبي، محافظاً على ذاكرة المكان اللغوية. كما يمزج في كثير من المواضع الفصحى ببعض التراكيب المحلية، بما يعكس التنوُّع الثقافي، ويجعل السرد قريباً من بيئته، وتعتمد لغته على الحس البصري والسمعي في التقاط التفاصيل الصغيرة كالتماع النار، وتكسُّر

الأصوات، وهي تفاصيل تتجاوز الزينة الأسلوبية لتصبح جزءاً من الهوية، وبنية الحياة اليومية.

وربما حدا هذا البعد الفنِّي في تجربة إبراهيم إسحاق بهاشم ميرغني إلى تقديم أعماله بوصفها تمثِّل أحد أهم المشاريع السردية التي تجسِّد تنوُّع المشهد الروائي ليس في السودان وحده، بل في العالم[34]. مع أنَّ إعادة النظر في موقف بشير، ومواقف بعض النقاد من تجربة إسحاق تكشف أنَّ الكتابة بالمحلية كانت أحد أسباب محدودية انتشار تجربته عالمياً.

وبناء على رؤية بشير عباس يمكن القول إنَّ اللُّغة الروائية لدى الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق تجسِّد اتجاهين متكاملين في الواقعية السودانية؛ فالطيب صالح يستخدم رمزية إيحائية تخاطب الوعي الفردي، بينما يعتمد إبراهيم إسحاق لغة محلية واقعية تسجيلية تخاطب الوعي الجمعي. وهذا التنوع دليل حيوية الرواية الواقعية، وقدرتها على استيعاب الواقع الاجتماعي المتعدِّد.

ويؤكد بشير تلازم اللغة، والبناء الفني للشخصية من خلال روايات الكاتبين؛ فاللُّغة عند الطيب صالح تعبِّر عن اغتراب المثقف بين ثقافتين، فيما تعمِّق اللغة عند إبراهيم إسحاق الارتباط بالأرض والمجتمع التقليدي. وتتشكَّل من مجموع هذه التجارب لوحة لغوية متنوِّعة تبرز فاعلية الرواية الواقعية السودانية، وقدرتها على استيعاب الهامش، والمركز معاً، وتجعل اللغة أداة تشكيل للرؤية الفنية.

واللُّغة في روايات الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق ليست أداة سرد فحسب، بل هي جوهر إبداع يعكس رؤية الكاتب للعالم، ويعيد تشكيل وعيه بواقعه، وقد جعل الطيب صالح من الفصحى لغةً رمزية تجسِّد التجربة الفردية، بينما عبَّر إبراهيم إسحاق عن قضايا مجتمعه بعامية واقعية تسجيلية، وبين الرمزي والواقعي تجلَّت قراءة بشير بوصفها رؤيةً معرفيةً جماليةً تربط الفن بالحياة، وتعيد إلى الرِّواية الواقعية العربية حيويتها، وتنوعها الثقافي.

3-1 ملامح التجديد في بناء الشخصية

تؤدي الشخصية دوراً رئيساً في بناء الرواية، وتمثِّل عنصراً أساسياً في إيصال الفكرة، ما يجعلها حجر زاوية في كل عمل روائي ناجح، فهي التي تحمل الفكرة، وتقدمها في قالب فني يترك أثراً دائماً في نفوس القراء غالباً ما يكون مرتبطاً بتلك الشخصية. ولا تكاد توجد رواية ذاع صيتها، إلا وكانت شخصياتها المؤثرة من أبرز أسباب انتشارها، إلى جانب اللغة، والأسلوب، والحبكة، والعناصر السردية الأخرى؛ لهذا قيل "إنَّ أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي إلى العالم لا يمكن أن يكون تاماً"[35].

وتُعدُّ الشخصية مؤشراً مهماً يُستند إليه في تقييم جودة العمل الأدبي، إذ يقاس من خلالها مدى تمكن الكاتب، أو إخفاقه في بناء شخصياته، ومنحها القدرة على ترسيخ صورها في أذهان القراء. فالشخصية تتشكَّل في مخيلة المتلقي تبعاً للأدوار التي هيأها لها الكاتب، ويتكامل أثرُها من خلال اللُّغة التي تنطق بها، والبيئة التي تتفاعل فيها، بما تثيره من تصوُّرات، ومشاعر تضفي على الرِّواية طابعاً إنسانياً نابضاً بالحياة.

وقد أولى بشير عباس الشخصية في الرِّواية السودانية اهتماماً واسعاً ناقش من خلاله ملامح التجديد في بنائها، متتبعاً تطوُّرها عبر مراحل مختلفة، ففي بدايات الرواية العربية اعتمد الكاتب على الوصف الملحمي، والاهتمام بالبيئة المحيطة بالشخصية، دون منحها الحرية الكافية للتحرَّك أو التعبير عن مشاعرها، وأفكارها، أو عرض أنماط سلوكها، مع تدخُّل واضح في تحليل المواقف، وإصدار الأحكام.

ثم جاءت مرحلة لاحقة اتبع فيها كتَّاب الرواية الواقعية في السودان أسلوباً درامياً في بناء الشخصية أتاح تقديمها بصورة أعمق، وأكثر استقلالاً بعيداً عن التوجيه المباشر من الكاتب، لتبدو كما لو كانت تؤدي أدوارها على خشبة المسرح أمام جمهور من القراء.

في هذا السياق أصبح القارئ يستمتع بالحوار الذي تقوده الشخصيات، فالشخصية" تقوم بتذكُّر العديد من المواقف والحكايات المتداخلة... وتتولى السرد"[36] بينما يقوم الكاتب بدوره في تصوير المشاهد بوسائل فنية وإبداعية متقنة، وقد برع الطيب صالح في هذا الأسلوب؛ لما امتلكه من قدرة فائقة على الكتابة الإبداعية بكل مقوماتها، التي تتكامل؛ لتنتج أسلوباً مشوِّقاً تتلاحم فيه الصور بكل أبعادها، ويتجلى ذلك في تصويره

لشخصية الزين، وهي شخصية" حيَّةً ناميةً، مليئة بالحركة ... غنيةً خصبةً، لها دلالاتها الفكرية، والاجتماعية".[37]

ويتأمل بشير أسلوب الطيب صالح في بناء الرواية، ويبرز تفنُّنه في صياغة الأحداث، ورسم أبعاد الشخصيات، كما يناقش قدرته على تشكيل البناء الروائي عبر الوصف التفصيلي، لا سيما في رواية موسم الهجرة إلى الشمال التي يرقُب الرَّاوي فيها حركة الشخصيات، ويندمج في تفاصيلها دون أن يتدخَّل بصورة مباشرة في توجيهها، وفي ذات السياق يرى بشرى الفاضل أنَّ الطيب صالح يكاد يكون الروائي السوداني الوحيد الذي" يمتلك خاصية تعددية الأصوات فيما يرسم من شخصيات"[38].

ويحتفي بشير عباس بأسلوب الطيب صالح، الذي يميل إلى تعميق البعد الثقافي والنفسي والاجتماعي في شخصياته، من خلال ربطها الوثيق بالبيئة السودانية، والهوية المحلية، فالطيب صالح يضفي على شخصياته عمقاً دلالياً نابعاً من سياقها الثقافي، ويجعلها تعبِّر عن خصوصية بيئتها الخاصة بكل ما يكتنف واقعها الإنساني من تناقضات، وصراعات.

وتتجلَّى هذه الخصوصية عند بشير في ثنائية الانتماء، والاغتراب، وفيما تبيِّنه الأحداث من صراع وحوار بين الحضارات الشرقية والغربية، فالشخصيات في موسم الهجرة إلى الشمال تتحرَّك في فضاء سردي تتشابك فيه الرموز الدالة على الهوية، والمثقلة بالحنين إلى المكان، مما يرفع مستوى الحوار السردي؛ ليصبح غنياً بالإيحاءات، متجاوزاً التجربة الفردية إلى فضاء غني بالمعاني والدلالات، يحاكي الحياة بعمقها، وتعقيداتها، وبكل تفاصيلها الدقيقة.

وتلتقي رواية عرس الزين للطيب صالح روايته موسم الهجرة إلى الشمال في الارتباط بالبيئة السودانية، والهوية المحلية، إذ تتحول الشخصيات الريفية البسيطة إلى رموز إنسانية شديدة الصفاء، والنقاء، تجسد الصدق الواقعي، وتُبدي العمق الدلالي في بيئة تشهد تفاعل إنسانها الخلَّاق، وتروي تفاعله مع كل تفاصيلها.

وتتسم رواية موسم الهجرة ببلاغة اللغة، وجمال التصوير، وبراعة الخطاب، وتتجلَّى روعة وصف الطيب صالح لشخصية الرَّاوي مصطفى سعيد في قوله: "دققتُ النَّظر في وجهه، وهو مُطْرِقٌ. إنَّه رجل وسيم دون شك، جبهته عريضة رحبة، وحاجباه متباعدان، يقومان أهِلَّة فوق عينيه، ورأسه بشعره الغزير الأشيب متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه، وأنفه

حاد، منخاراه مليئان بالشعر، ولمَّا رفع وجهه أثناء الحديث، نظرتُ إلى فمه وعينيه، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل، كان فمه رخواً، وكانت عيناه ناعستين، تجعلان وجهه أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة. ويتحدَّث بهدوء، لكن صوته واضح قاطع. حين يسكن يقوى. وحين يضحك يغلب الضعف على القوة"[39].

يحرص الطيب صالح في هذا المقطع على تكوين صورة ذهنية واضحة لمصطفى سعيد لدى المتلقي، إذ يرسم ملامحه الخارجية، وانفعالاته بلغة تشي بحسٍ إنساني مرهف، في رسم متقن، كتب بحسٍّ أدبي مُلهم لا يغادر ملمحاً إلَّا وعزَّزه في مخيلة المتلقي، وهذا أحد أهم أسرار فرادة أسلوب الطيب صالح؛ فهو لا يكتفي برسم الصورة العامة للشخصية، بل ينفذ إلى أعماقها النفسية، ويتأملها بروح المبدع الذي يتجاوز التفاصيل العامة ليستكشف ما يعتمل في دواخلها من مشاعر، وصراعات.

ويتجاوز الطيب صالح في رسم شخصياته الأسلوب الوصفي التقليدي إلى التصوير الفني العميق الذي يجعل القارئ شريكاً في إنتاج النص؛ إذ يكمل بخياله ما رسمه الروائي من بناء دلالي، وهو ما يقرأ في بلاغة السَّرد عند الطيب صالح، الذي يحوِّل ببراعته المشهد الوصفي، إلى تجربة حسية شعورية تترسَّخ في وجدان المتلقي، وتقوده إلى قراءة منتجة، تعيد اكتشاف النص.

وفوق ذلك يقدِّم الطيب صالح شخصياته بحسب ما يمليه إبداعه من تصوُّرِ حياة موازية للواقع، يستمد منها مادته، ويضيف إليها من لمسات خياله ما تفيض به عبقريته، وما تتيحه عوالم الرواية وفق رؤية فنية تتسق مع أنماط الشخصيات في العمل الإبداعي على اختلاف صورها؛ بين الشخصية السلبية[40] (الضعيفة) والإيجابية[41] (القوية)؛ مما يجعل روايته عامرة بصور التناقض التي تجسِّد طبيعة الحياة نفسها، إذ تجمع بين الأطراف المتناقضة، وتحتضن أطياف التجربة الإنسانية بكل ما فيها من بهجة، وبؤس.

فبعض الشخصيات تعيش حياةً هانئة، وأخرى تعيش حياة بائسة مملة، وقد يخلق لها الكاتب" من المواقف، والأحداث ما ينفرنا من عجزها، وسلبيتها، ويثير فينا احتقاراً لها، وازدراءً لشأنها، ويستطيع أن يثير فينا تعاطفاً مع ضعفها إذا رد هذا الضعف مثلاً إلى عوامل نفسية قاهرة، لا تستطيع الشخصية منها فكاكاً".[42]

وقد أفرد بشير عباس مساحة مقدَّرة من مؤلفه لإبداء آرائه في بناء الشخصية في الرواية الواقعية لدى عدد من الكتَّاب السودانيين من بينهم عبد الفتاح صالحين، وعبد

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

الفتاح محمد عثمان، وملكة الدار محمد، وأبو بكر خالد، وإبراهيم إسحاق، والطيب صالح، وتضمنت دراسته استعراضاً لأنماط الشخصية التي حفلت بها روايات هؤلاء الكُتَّاب محلِّلاً علاقة الحدث، بالشخصية، والبناء اللغوي الخيالي الذي يصوغ أفعالها، وأفكارها، وجوانبها الجمالية.

وقد توقف بشير طويلاً عند تجربة الطيب صالح، مستفيضاً في تحليلها، وكأنَّه يعلن –ضمناً– تفوقه، وفرادته بين كتَّاب الرواية السودانية، بفضل قدرته على استخدام تقنية التقابل، والتضاد في بناء الشخصية، فهو يدمج، ويماثل بين الشخصيات، على نحو يجعل لكلٍّ منها وجهاً آخر، أو نظيراً له داخل النص. لهذا يجد القارئ لكلِّ شخصية في رواية الطيب صالح مقابلاً أو وجها آخر (مصطفى سعيد، وود الريِّس، ومصطفى سعيد، والراوي، وحسنة بنت محمود، وجين موريس) في رواية موسم الهجرة إلى الشمال" فإذا كان ود الريِّس قد تداخل، وتطابق مع مصطفى سعيد في بعض الأحيان، فإنَّ حسنة تتطابق مع جين مورس بدرجة أكبر، فإذا نظرنا إلى الطريقة التي قتلت بها كل منهما، لوجدناها متطابقة تماماً، فقد ماتت حسنه في أحضان ود الريِّس، بنفس الصورة التي ماتت بها جين مورس في أحضان مصطفى سعيد"[43]

ويبرع الطيب صالح في تصوير مشاهد شخصياته، وهو يماثل بينها، فتتداخل في ذهن الراوي، وتجرى بها أحداث الرواية، في ربط فنِّي يعكس قدرة الكاتب على التصوير، ويبدي براعته في استحضار أدق التفاصيل المؤثرة، وأكثرها تأثيراً في خلق تصوُّر للأحداث، فالرواية جملة من العلاقات، وفضاؤها "مزيج من المعرفة والبصيرة، أو لقاء محسوب بين الواقعي والمتخيل"[44]

والحال هذه، لا يقف الطيب صالح عند تطابق مواقف الشخصيتين، وإنما يتجاوز إلى المقاربة بين صورتيهما الجسديتين في تفاصيل تعبِّر عن قوة ذاكرة الراوي في استحضار العلاقات المتماثلة بين الشخصيتين" ومما يثير الإعجاب أنَّ الطيب صالح قد استطاع بقدرة فائقةٍ أن يحتفظ لكل شخصية رغم التداخل، والتطابق بطابعها، واستقلالها كوحدة قائمة بذلك تعبِّر عن نفسها". [45]

امتد التقابل بين الشخصيات في روايات الطيب صالح ليجسد التمثيل الرمزي العميق لصراع حضاري وفكري بين الشرق والغرب، بين الذات السودانية الباحثة عن الجذور، والمتجهة نحو هيمنة الغرب المستعمر، وهو التوازي الذي لعب عليه الطيب

صالح، حينما رسم لوحة درامية للصراع الداخلي الذي عاشه مصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال، وقد بلغ الكاتب به ذروة إبداعه.

ويبقى أنَّ عناصر تكوين الرواية من لغة، وشخصية، ومكان تكاملت لتشكِّل نسقاً فنياً متماسكاً عبَّر عن رؤية الطيب صالح للإنسان والواقع، وقد أحسن توظيف اللغة في تصوير شخصياته، وجعل منها محوراً للصراع الإنساني، ومن المكان فضاءً دلالياً يحتضن التحولات النفسية، والاجتماعية، الأمر الذي ارتقى بأسلوبه، وجعل من رواياته علامات فارقة في مسار السرد العربي الحديث.

الخاتمة

خلص البحث إلى أنَّ قراءة الناقد بشير عباس لأعمال الطيب صالح، وإبراهيم إسحاق أظهرت وعياً نقدياً، وقدرةً منهجية على الربط بين اللغة وبناء الشخصية، وتحليل البنية السردية للنص.

ونوجز أهم نتائج البحث فيما يلي:

1. أكد البحث أصالة رؤية بشير عباس، واتسامها بالدقة والموضوعية.
2. جمع بشير بين المنهجين التاريخي والمقارن ساعده على تفكيك بنية الرواية، وتحليل علاقاتها الداخلية.
3. أبرز البحث صلة الرواية الواقعية بالتحولات الاجتماعية والفكرية، باعتبارها خطاباً نقدياً يعيد إنتاج الواقع عبر لغته وشخصياته، وكشف كذلك عن عمق فهم بشير لدلالات اللغة، وقدرته على تحليل الشخصيات بما يوضِّح بنيتها، وعلاقتها بالنص.
4. أظهرت لغة الرِّواية الواقعية ملامح الشخصية السودانية، وأتاحت قراءةً نقدية منهجية كشفت أبعادها الفنية والثقافية.
5. أظهر البحث قلَّة الدِّراسات المتعلقة بالرواية السودانية.

ويوصى البحث بإعادة قراءة مشروع بشير عباس النقدي، واستكمال ما تبقَّى من جوانب رؤيته بدراسات تتعمَّق في قراءة مشروعه؛ بغية استثمار رؤيته في تطوير دراسات نقد الرواية السودانية.

هوامش البحث

(1) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي في الرواية السودانية الحديثة بين النظرية والتطبيق**، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أم درمان 1432هـ-2011، ص2-9.

(2) السابق، ص1.

(3) مروة، حسين، **دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي**، مكتبة المعارف، بيروت، 1988م، ص104.

(4) حمدي، نبيل، بنية الانسياب السردي في روايات الطيب صالح (عرس الزين، بندر شاه- مريود) نموذجاً- دراسة نصية، مركز جيل البحث العلمي، 2011م، الموقع على الشابكة: https://jilrc.com/archives/5094?utm_source=chatgpt.com

(5) عبد الله، محمد حسن، **الواقعية في الرواية العربية**، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٦.

(6) بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص٢٤.

(7) عبد العظيم، إيمان إمام، الرؤية النقدية لجدلية اللغة في الرواية الواقعية المجلة العلمية، المجلد السابع، العدد الرابع، أكتوبر 2018م، (27 صفحة).

(8) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص 252.

(9) ينظر السابق، ص 52-253.

(10) عبد الرحيم، محمد عبد الرحيم، **دراسات في الرواية العربية، مصر**، دار الحقيقة للإعلام الدولي، 1411هـ- 1991م، ص3.

(11) خضر، عباس، **الواقعية في الأدب**، دار الجمهورية، بغداد 1338هـ-1967، ص3.

(12) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص274.

(13) ينظر السابق: ص275.

(14) ينظر السابق: ص 254.

(15) استخدمه كتاب الرواية الواقعية بدافع الإفصاح عن شخصياتهم، واقترن -عند بعضهم- بالتوسل بمناجاة النفس، التي تشبه في طبيعتها إلى حد كبير المونولوج الداخلي.

(16) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص 54-321.

(17) عبد العظيم، إيمان إمام، الرؤية النقدية لجدلية اللغة في الرواية الواقعية المجلة العلمية، المجلد السابع، العدد الرابع، أكتوبر 2018م، (27 صفحة)، ص150.

(18) السابق: ص 149.

(19) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص297.

(20) ينظر السابق: ص295-300.

(21) ينظر السابق: ص149.

(22) ينظر السابق: ص285.

(23) وسائل السرد كثيرة منها: الحوار، الوصف، الرسائل، مناجاة النفس، وغيرها من أشكال التعبير.

(24) الوصفُ وسيلة اتخذها كُتَّاب الرواية لتصوير شخصياتهم، ورسم الصورة الكلية لمحتوى الرواية من أشخاص، وبيئة مكانية، وزمانية.

(25) الحوار من أكثر الصيغ المعبرة عن الشخصية، ويرى بشير عباس أنَّ ارتقاء الحوار في بناء الرواية السودانية يعكس تطوُّر الرواية الواقعية، لمراجعة ذلك، ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي** ص280.

(26) عبد العظيم، إيمان إمام، الرؤية النقدية، ص 149.

(27) بحراوي، حسن، **بنية الشكل الروائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م، ص 27.

(28) صالح، الطيب، **موسم الهجرة إلى الشمال**، دار العين للنشر، القاهرة، 1425هـ- 2004م، ص 5.

(29) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص 308-314.

(30) الحاج، هاشم ميرغني، الرواية السودانية الجديدة تزدهر كاسرة مركزية الصوت الواحد، اندبندنت عربية، ٦ ديسمبر 2020م، الموقع على الشابكة https://www.independentarabia.com/node/174536

(31) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص 308-314.

(32) ينظر السابق: ص 314-315.

(33) إبراهيم إسحق، **أعمال الليل والبلدة**، قسم التأليف والنشر، الخرطوم، 1971، ص 128.

(34) ينظر الحاج، هاشم ميرغني، الرواية السودانية الجديدة" الموقع على الشابكة https://www.independentarabia.com/node/174536

(35) لوكاتش، جورج، **دراسات في الواقعية**، الطبعة الثالثة، ترجمة د. نايف بلّوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1405هـ- 1985م، ص 25.

(36) محمد أحمد، عبد الغفار الحسن، أسئلة الهوية السودانية في رواية زوج امرأة الرصاص وابنته الجميلة- لعبد العزيز بركة ساكن" مجلة كلية اللغة العربية- جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الحادي عشر، 2022م، (23 صفحة)، ص 303-304.

(37) ينظر السابق، ص204.

(38) الفاضل، بشرى، كيف يبني الطيب صالح شخصيات رواياته، صحيفة المدينة الإلكترونية، 18 يناير 2012م، الموقع على الشابكة https://www.al-madina.com/ampArticle/130835?utm_source=chatgpt.com

(39) صالح، الطيب، **الأعمال الكاملة**، طبعة أولى، بيروت، دار العودة، 1996م، ص17-18.

(40) هي الشخصية المحورية، أو الثانوية المشاركة في صنع أحداث الرواية، المؤثرة فيمن حولها، المعبِّرة عن قوى الشر، أو الانحراف.

(41) هي الشخصية المحورية المشاركة في صنع أحداث الرواية، المؤثرة فيمن حولها، المعبِّرة عن قيم الخير.

(42) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص139.

(43) ينظر بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي**، ص139.

(44) درَّاج، فيصل، **الرواية وتأويل التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004م، ص18.

(45) ينظر السابق، ص220.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- بشير، بشير عباس، **الاتجاه الواقعي في الرواية السودانية الحديثة بين النظرية والتطبيق**، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أم درمان 1432هـ-2011م.

ثانياً المراجع:

- إسحاق، إبراهيم، **حدث في القرية**، طبعة ثانية، دار مسارب للطباعة، والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2022م.
- إسحاق، إبراهيم، **أعمال الليل والبلدة**، دار الطباعة، قسم التأليف والنشر، الخرطوم، 1971م.
- بحراوي، حسن، **بنية الشكل الروائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م.
- صالح، الطيب، **الأعمال الكاملة**، بيروت، دار العودة، 1996م.
- صالح، الطيب، **موسم الهجرة إلى الشمال**، القاهرة، طبعة دار العين للنشر، 2004م.
- خضر، عباس، **الواقعية في الأدب**، دار الجمهورية، بغداد 1338هـ-1967م.
- درَّاج، فيصل، **الرواية وتأويل التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004م.
- عبد العظيم، إيمان إمام، الرؤية النقدية لجدلية اللغة في الرواية الواقعية المجلة العلمية، المجلد السابع، العدد الرابع، أكتوبر 2018م، (27 صفحة).
- عبد الرحيم، محمد عبد الرحيم، **دراسات في الرواية العربية، مصر**، دار الحقيقة للإعلام الدولي، 1411هـ- 1991م.
- عبد الله، محمد حسن، **الواقعية في الرواية العربية**، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991م، ص16.
- لوكاتش، جورج، **دراسات في الواقعية**، الطبعة الثالثة، ترجمة د. نايف بلّوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1405هـ- 1985م.
- محمد أحمد، عبد الغفار الحسن، أسئلة الهوية السودانية في رواية زوج امرأة الرصاص وابنته الجميلة- لعبد العزيز بركة ساكن" مجلة كلية اللغة العربية- جامعة أم درمان الإسلامية، (العدد الحادي عشر)، 2022م، (23 صفحة).
- مروة، حسين، **دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي**، مكتبة المعارف، بيروت، 1988م.

المواقع على الشابكة:

- إسحاق، إبراهيم (23 يناير/ 2021) - حوار أعيد نشره - مع الروائي إبراهيم إسحاق، "أجمل الروايات في التاريخ أصعبها" صحيفة مداميك الإلكترونية، الموقع على

الشابكة:
https://www.medameek.com/?p=34041&utm_source=chatgpt.com

- حمدي، نبيل، بنية الانسياب السردي في روايات الطيب صالح (عرس الزين، بندر شاه- مريود) نموذجاً- دراسة نصية، مركز جيل البحث العلمي، 2011م، الموقع على الشابكة:
https://jilrc.com/archives/5094?utm_source=chatgpt.com
- الحاج، هاشم ميرغني، الرواية السودانية الجديدة تزدهر كاسرة مركزية الصوت الواحد، اندبندنت عربية، 6 ديسمبر 2020م، الموقع على الشابكة https://www.independentarabia.com/node/174536
- الحاج، هاشم ميرغني، (2017م)، "تحليل ومناقشة ببليوغرافيا الرواية السودانية 1948-2015م" فضائية S 24، برنامج الوراق، تقديم غسان علي عثمان 2017م.
- الفاضل، بشرى، كيف يبني الطيب صالح شخصيات رواياته، صحيفة المدينة الإلكترونية، 18 يناير 2012م، الموقع على الشابكة https://www.al-madina.com/ampArticle/130835?utm_source=chatgpt.com